الدرس الحادي عشر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، صلىٰ الله وسلم عليه وعلىٰ آله وأصحابه أجمعين.

أما بعد :

يقول رحمه الله تعالىٰ :

وَمِنْ أَسْبَابِ الْإِيمَانِ وَدَوَاعِيهِ: التَّفَكُّرُ فِي الْكَوْنِ؛ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَمَا فِيهِنَّ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ الْمُتَنَوِّعَةِ، وَالنَّظَرُ فِي نَفْسِ الْإِنْسَانِ، وَمَا هُوَ عَلَيْهِ مِنَ الصِّفَاتِ، فَإِنَّ ذَلِكَ دَاعٍ قَوِيٌّ لِلْإِيمَانِ، لِمَا فِي هَذِهِ الْمَوْجُودَاتِ مِنْ عَظَمَةِ الْخَلْقِ الدَّالِّ عَلَىٰ قُدْرَةِ خَالِقِهَا وَعَظَمَتِهِ، وَمَا فِيهَا مِنَ الْحُسْنِ وَالِانْتِظَامِ، وَالْإِحْكَامِ الَّذِي يُحَيِّرُ الْأَلْبَابَ، الدَّالِّ عَلَىٰ سَعَةِ عِلْمِ اللهِ، وشُمُولِ حِكْمَتِهِ، وَمَا فِيهَا مِنْ أَصْنَافِ الْمَنَافِعِ وَالنِّعَمِ الكَثِيرَةِ، الَّتِي لَا تُعَدُّ وَلَا تُحْصَىٰ، الدَّالَّةِ عَلَىٰ سَعَةِ رَحْمَةِ اللهِ، وَجُودِهِ وَبِرِّهِ، وَذَلِكَ كُلُّهُ يَدْعُو إِلَىٰ تَعْظِيمِ مُبْدِعِهَا وَبَارِئِهَا وَشُكْرِهِ، وَاللَّهَجِ بِذِكْرِهِ، وَإِخْلَاصِ الدِّينِ لَهُ، وهَذَا هُوَ رُوحُ الْإِيمَانِ وَسِرُّهُ.

وَكَذَلِكَ النَّظَرُ إِلَىٰ فَقْرِ الْمَخْلُوقَاتِ كُلِّهَا، وَاضْطِرَارِهَا إِلَىٰ رَبِّهَا مِنْ كُلِّ الْوُجُوهِ، وَأَنَّهَا لَا تَسْتَغْنِي عَنْهُ طَرْفَةَ عَيْنٍ، خُصُوصًا مَا تُشَاهِدُهُ فِي نَفْسِكَ، مِنْ أَدِلَّةِ الِافْتِقَارِ، وَقُوَّةِ الِاضْطِرَارِ، وَذَلِكَ يُوجِبُ لِلْعَبْدِ كَمَالَ الْخُضُوعِ، وَكَثْرَةَ الدُّعَاءِ وَالتَّضَرُّعِ إِلَىٰ اللهِ فِي جَلْبِ مَا يَحْتَاجُهُ مِنْ مَنَافِعِ دِينِهِ وَدُنْيَاهُ، وَدَفْعِ مَا يَضُرُّهُ فِي دِينِهِ ودُنْيَاهُ، وَيُوجِبُ لَهُ قُوَّةَ التَّوَكُّلِ عَلَىٰ رَبِّهِ، وَكَمَالَ الثِّقَةِ بِوَعْدِهِ، وَشِدَّةَ الطَّمَعِ فِي بِرِّهِ وَإِحْسَانِهِ، وَبِهَذَا يَتَحَقَّقُ الْإِيمَانُ، وَيَقْوَىٰ التَّعَبُّدُ، فَإِنَّ الدُّعَاءَ مُخُّ العِبَادَةِ وَخَالِصُهَا.

وَكَذَلِكَ التَّفَكُّرُ فِي كَثْرَةِ نِعَمِ اللهِ وَآلَائِهِ الْعَامَّةِ وَالْخَاصَّةِ، الَّتِي لَا يَخْلُو مِنْهَا مَخْلُوقٌ طَرْفَةَ عَيْنٍ، فَإِنَّ هَذَا يَدْعُو إِلَىٰ الْإِيمَانِ.

وَلِهذَا دَعَا اللهُ الرُّسُلَ وَالْمُؤْمِنِينَ إِلَىٰ شُكْرِهِ، فَقَالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ١٧٢﴾ [سُورَةُ البَقَرَة].

فَالْإِيمَانُ يَدْعُو إِلَىٰ الشُّكْرِ، وَالشُّكْرُ يَنْمُو بِهِ الْإِيمَانُ، فَكُلٌّ مِنْهُمَا مُلَازِمٌ وَمَلْزُومٌ لِلْآخَرِ.

الشرح :

فهذا من جملة الأسباب المقوية للإيمان ألا وهو التفكر في مخلوقات الله العظيمة وآياته المشاهدة من سماء وأرض وليل ونهار ، وشمس وقمر وبحارٍ وأنهار ، وجبالٍ وأشجار ، وغير ذلك من مخلوقات الله عز وجل التي

هي آيةٌ علىٰ كمال خالقها وعظمة مبدعها وأنه تبارك وتعالىٰ المعبود بحق ، ولا معبود بحقٍ سواه ، قال الله عز وجل : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ ﴾

بل إن تفكر الإنسان في نفسه وما أودع الله سبحانه وتعالىٰ فيه من الدلائل علىٰ عجيب صنع الله وكمال قدرته جل في علاه ، فإن الإنسان نفسه وما ركّب عليه خلقه آية من الآيات الدالة علىٰ كمال المبدع وعظمته جل وعلا ، ولهذا قال الله تعالىٰ : ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ ﴾

وقال تعالىٰ : ﴿ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾

فالإنسان نفسه فيه آياتٌ عظيمة ودلالات عجيبة علىٰ كمال من خلقه ، وعظمة من أوجده سبحانه وتعالىٰ ، كذلك من جهةٍ أخرىٰ ، نظر العبد في افتقاره إلىٰ الله عز وجل وفقره إليه وأنه لا غنىٰ له عن ربه سبحانه وتعالىٰ طرفة عين ، ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾ ﴾

وفي الحديث القدسي : ياعبادي كلكم جائع إلا من أطعمته ، كلكم عار إلا من كسوته ، كلكم ضال إلا من هديته]

فالعبد فقيرٌ فقراً ذاتيـًا إلىٰ ربه ومولاه من كل وجه والله سبحانه وتعالىٰ غني من كل وجه عن المخلوقات ، فمعرفة هذا الفقر ؛ فقر العبد إلىٰ ربه سبحانه وتعالىٰ واستشعاره هذا الفقر من أعظم موجبات الإيمان ودواعيه ، ومن أعظم أسبابه ، ومن أعظم أسباب قوة الصلة بالله وحسن التوكل عليه سبحانه وتعالىٰ ، والإقبال عليه بالدعاء والسؤال والإفتقار والتذلل والطلب كذلك من جهةٍ أخرىٰ تفكر الإنسان في نعم الله العديدة ومننه المتنوعة وعطاياه التي لا تعد ولا تحصىٰ ، والله جل وعلا يقول : ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾

ويقول جل وعلا : ﴿ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾

فهذه النعم والآلاء العامة والخاصة والتي لا يخلو منها المخلوق آية علىٰ الخالق سبحانه وتعالىٰ وموجبه لقوة الإيمان به سبحانه وتعالىٰ واللهج بذكره وشكره ، وقد قال الله عز وجل : ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾﴾

قال رحمه الله تعالىٰ :

وَمِنْ أَسْبَابِ دَوَاعِي الْإِيمَانِ: الْإِكْثَارُ مِنْ ذِكْرِ اللهِ كُلَّ وَقْتٍ، وَمِنَ الدُّعَاءِ الَّذِي هُوَ مُخُّ الْعِبَادَةِ.
فَإِنَّ الذِّكْرَ للهِ يَغْرِسُ شَجَرَةَ الْإِيمَانِ فِي الْقَلْبِ، وَيُغَذِّيهَا وَيُنَمِّيهَا، وَكُلَّمَا ازْدَادَ الْعَبْدُ ذِكْرًا للهِ؛ قَوِيَ إِيمَانُهُ، كَمَا أَنَّ الْإِيمَانَ يَدْعُو إِلَىٰ كَثْرَةِ الذِّكْرِ، فَمَنْ أَحَبَّ اللهَ أَكْثَرَ مِنْ ذِكْرِهِ، وَمَحَبَّةُ اللهِ هِيَ الْإِيمَانُ، بَلْ هِيَ رُوحُهُ.

الشرح :

قال : **(وَمِنْ أَسْبَابِ دَوَاعِي الْإِيمَانِ: الْإِكْثَارُ مِنْ ذِكْرِ اللهِ كُلَّ وَقْتٍ، وَمِنَ الدُّعَاءِ الَّذِي هُوَ مُخُّ الْعِبَادَةِ.)** وهذا الأمران كما ذكر رحمه الله تعالىٰ من الأسباب العظيمة لتقوية الإيمان ولهذا جاء في القرآن الأمر بذكر الله سبحانه بالكثرة ؛ ﴿ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾﴾

قال : ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾﴾

أمر سبحانه وتعالىٰ ذكره بالكثرة ؛ لأن ذكر الله سبحانه وتعالىٰ غذاء الأرواح وموجبٌ لقوة الإيمان ؛ إيمان الذاكر بالله سبحانه ولاسيما إذا جمع في ذكره بين الذكر بالقلب واللسان وهو أعلىٰ مراتب الذكر ، أن يكون ذاكراً لله سبحانه وتعالىٰ بقلبه ولسانه ، والله يقول : ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾

وأما الدعاء فشأنه شأنٌ عظيم في تقوية الإيمان ولاسيما إذا استشعر المرء أن الأمور كلها ومنها إيمانه بالله وحسن صلته به جل في علاه ، وصلاح قلبه واستقامته علىٰ طاعة الله أمرٌ بيد الله عز وجل لا يتحقق شيءٌ منه إلا إذا منّ الله عز وجل علىٰ العبد وتفضل، ولهذا يقول أحد السلف وهو مطرّف بن عبد الله الشخير وهو من علماء التابعين يقول : [تأملت في الخير فإذا هو أبواب كثيرة الصلاة خير والصيام خير ، وإذا كل ذلك بيد الله] بمعنىٰ أنك لا يمكن أن تصلي إلا إذا أعانك الله ولا يمكن أن تصوم إلا إذا أعانك الله ، ولا يمكن أن تقوم بأي طاعة إلا إذا أعانك الله عليها [فأيقنت أن الدعاء مفتاح كل خير] لأن الخير بيد الله عز وجل فمفتاح كل خير الدعاء ، والله يقول : ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾

ولهذا ينبغي علىٰ العبد أن يكثر من سؤال الله من خيري الدنيا والآخرة ولاسيما الإيمان الذي هو أعظم

المطالب وأجل المواهب ، ومن دعوات نبينا الكريم عليه الصلاة والسلام في هذا الباب : [اللهم أصلح لي ديني الذي هو عصمة أمري وأصلح لي دنياي التي فيها معاشي وأصلح لي آخرتي التي فيها معادي واجعل الحياة زيادة لي في كل خير والموت راحة لي من كل شر] وقدم عليه الصلاة والسلام سؤال الله صلاح الدين قبل سؤاله صلاح الدنيا لأن صلاح الدين هو أعظم المطالب وأجل المواهب ، ومن دعواته عليه الصلاة والسلام [اللهم زينا بزينة الإيمان واجعلنا هداة مهتدين] وكثيراً ما كان يدعو [يامقلب القلوب ثبت قلبي علىٰ دينك] فالدعاء والإقبال علىٰ الله بالسؤال صادقاً ملحاً ، صادقاً العبد في دعائه ملحاً علىٰ الله سبحانه وتعالىٰ في سؤاله وطلبه هذا ولاشك من أعظم موجبات الإيمان ، ومن أعظم ثبات المرء علىٰ الإيمان .

قال رحمه الله تعالىٰ :

وَمِنَ الْأَسْبَابِ الْجَالِبَةِ لِلْإِيمَانِ: مَعْرِفَةُ مَحَاسِنِ الدِّينِ، فَإِنَّ الدِّينَ الْإِسْلَامِيَّ كُلَّهُ مَحَاسِنُ، عَقَائِدُهُ؛ أَصَحُّ الْعَقَائِدِ وَأَصْدَقُهَا وَأَنْفَعُهَا، وَأَخْلَاقُهُ؛ أَحْمَدُ الْأَخْلَاقِ وَأَجْمَلُهَا، وَأَعْمَالُهُ وَأَحْكَامُهُ؛ أَحْسَنُ الْأَحْكَامِ وَأَعْدَلُهَا.

وَبِهَذَا النَّظَرِ الْجَلِيلِ يُزَيِّنُ اللهُ الْإِيمَانَ فِي قَلْبِ الْعَبْدِ، وَيُحَبِّبُهُ إِلَيْهِ، كَمَا امْتَنَّ بِهِ عَلَىٰ خِيَارِ خَلْقِهِ، بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات : ٧]، **فَيَكُونُ الْإِيمَانُ فِي الْقَلْبِ أَعْظَمَ الْمَحْبُوبَاتِ وَأَجْمَلَ الْأَشْيَاءِ.**

وَبِهَذَا يَذُوقُ الْعَبْدُ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ وَيَجِدُهَا فِي قَلْبِهِ، فَيَتَجَمَّلُ الْبَاطِنُ بِأُصُولِ الْإِيمَانِ وَحَقَائِقِهِ، وَتَتَجَمَّلُ الْجَوَارِحُ بِأَعْمَالِ الْإِيمَانِ، وَفِي الدُّعَاءِ الْمَأْثُورِ: «اللَّهُمَّ زَيِّنَّا بِزِينَةِ الْإِيمَانِ، وَاجْعَلْنَا هُدَاةً مُهْتَدِينَ».

الشرح :

كذلكم من الأسباب الجالبة للإيمان أن ينظر العبد في محاسن هذا الدين والدين كله محاسن ، عقائده أصح العقائد ، عباداته وأعماله أحسن العبادات وأجملها ، وأخلاقه أكمل الأخلاق وأرفعها ، فالتأمل في محاسن هذا الدين من موجبات الإيمان لمن لم يؤمن ، ومن أسباب قوة الإيمان وزيادته لمن آمن ، وكثيرٌ من الناس ممن كان علىٰ غير الإيمان ، ذكر له شيء من محاسن هذا الدين فدخل فوراً وسارع إلىٰ القبول والدخول في هذا الدين ، ولهذا يقول الإمام الشيخ عبد العزيز بن باز رحمة الله عليه ، مقسماً بالله جل وعلا يقول : والذي لا إله إلا هو لو بُينت محاسن الدين الإسلامي للناس كما ينبغي لدخلوا في دين الله أفواجاً ، لدخلوا في دين الله أفواجا . محاسن الدين من أعظم الأمور التي تدعو الإنسان إلىٰ هذا الدين ، فلو بينت للناس وشرحت ووضحت لدخلوا في دين الله أفواجا ، ولهذا كم من الخلق دخل في هذا الدين بسبب معرفة محاسنه ، بل بعضهم دخل بمعرفة خصلة واحدة يدعو إليها الإسلام فاعتنق الإسلام وأحبه ، وبعض الدعاة وفق توفيقاً عظيماً في هذا الباب في دعوة غير المسلمين إلىٰ الإسلام بعدّ هذه المحاسن ، محاسن الدين الإسلامي وخصائصه وما يدعو إليه فهذا من أعظم أسباب الدخول في هذاا الدين لمن لم يؤمن وكذلك المؤمن عندما يقرأ محاسن هذا الدين الذي منّ الله عليه بأن كان من أهله فيزداد إيماناً بهذه المعرفة وقد كتب أهل العلم كتابات نافعة في محاسن هذا الدين وعدها وللمصنف رحمه الله تعالىٰ رسالةٌ نافعة جداً في هذا الباب مطبوعة وعنوانها (الدرة المختصرة في محاسن الدين الإسلامي) وله أيضاً رسالة أخرىٰ لا تقل عنها أهميةً في هذا الباب أسماها رحمه الله تعالىٰ (الدين الصحيح يحل جميع المشاكل) وهي رسالة قيمة في بابها (الدين

الصحيح يحل جميع المشاكل) المشاكل التي تكون عند الناس أيـًا كانت الحل الصحيح لها هو هذا الدين المبارك ووضح ذلك ، وضح ذلك توضيحـًا بديعـًا جداً ، فمثل هذه المعاني العظيمة عندما يقرؤها المرء فإن كان غير مسلم دعته إلىٰ الإسلام وإن كان مسلمـًا دعته إلىٰ قوة الإسلام والزيادة في المحافظة عليه والعناية به .

وذكر رحمه الله أن التأمل بهذه المحاسن وبهذا النظر يزين الإيمان في القلب ويحببه إليه ، من أسباب تذوق الإيمان وتزيينه في القلب وقوة محبة العبد له في قلبه ، وهذه منة يمتن الله سبحانه وتعالىٰ بها علىٰ من شاء من عباده : ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ﴾

قال رحمه الله تعالىٰ :

وَمِنْ أَعْظَمِ مُقَوِّيَاتِ الْإِيمَانِ: الِاجْتِهَادُ فِي التَّحَقُّقِ فِي مَقَامِ الْإِحْسَانِ فِي عِبَادَةِ اللهِ، وَالْإِحْسَانِ إِلَىٰ خَلْقِهِ.
فَيَجْتَهِدُ أَن يَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّهُ يُشَاهِدُهُ وَيَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ يَقْوَ عَلَىٰ هَذَا؛ اسْتَحْضَرَ أَنَّ اللهَ يُشَاهِدُهُ وَيَرَاهُ، فَيَجْتَهِدُ فِي إِكْمَالِ الْعَمَلِ وَإِتْقَانِهِ، وَلَا يَزَالُ الْعَبْدُ يُجَاهِدُ نَفْسَهُ؛ لِيَتَحَقَّقَ بِهَذَا الْمَقَامِ الْعَالِي، حَتَّىٰ يَقْوَىٰ إِيمَانُهُ وَيَقِينُهُ، وَيَصِلَ فِي ذَلِكَ إِلَىٰ حَقِّ الْيَقِينِ -الَّذِي هُوَ أَعْلَىٰ مَرَاتِبِ الْيَقِينِ-، فَيَذُوقَ حَلَاوَةَ الطَّاعَاتِ، وَيَجِدَ ثَمَرَةَ الْمُعَامَلَاتِ، وَهَذَا هُوَ الْإِيمَانُ الْكَامِلُ.

الشرح :

كذلكم من مقويات الإيمان التحقق في مقام الإحسان بنوعيه ، الإحسان في عبادة الخالق والإحسان في معاملة الخلق ، والله عز وجل أمر بالإحسان ، وأخبر سبحانه وتعالىٰ أنه يحب المحسنين ، والنبي صلىٰ الله عليه وسلم دعا إلىٰ الإحسان وبيّن عظم مقام الإحسان وعلو مرتبته فالإحسان مقامٌ عظيم يحتاج من العبد إلىٰ مجاهدة ، مجاهدةٌ للنفس مستمرة حتىٰ يتحقق في هذا المقام العظيم مقام الإحسان : ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٦٩﴾

فمقام الإحسان يحتاج إلىٰ المجاهدة ، الإحسان في عبادة الخالق والإحسان في معاملة المخلوق ، فإذا أخذ المرء نفسه بهذه المجاهدة مجاهدتها علىٰ التحقق ب في مقام الإحسان عبادةً للخالق ومعاملةً للخلق أثمر ذلك كما قال رحمه الله : ذوق حلاوة الطاعة ، أيضـًا ثمرة المعاملة ؛ المعاملة الحسنة الطيبة لعباد الله عز وجل ، وهذا هو الإيمان الكامل .

قال رحمه الله تعالىٰ :

وَكَذَلِكَ الْإِحْسَانُ إِلَىٰ الْخَلْقِ؛ بِالْقَوْلِ، وَالْفِعْلِ، وَالْمَالِ، وَالْجَاهِ، وَأَنْوَاعِ الْمَنَافِعِ؛ هُوَ مِنَ الْإِيمَانِ، وَمِنْ دَوَاعِي الْإِيمَانِ.

وَالْجَزَاءُ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ، فَكَمَا أَحْسَنَ إِلَىٰ عِبَادِ اللهِ، وَأَوْصَلَ إِلَيْهِمْ مِنْ بِرِّهِ مَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ؛ أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْهِ أَنْوَاعًا مِنَ الْإِحْسَانِ، وَمِنْ أَفْضَلِهَا: أَن يَقْوَىٰ إِيمَانُهُ وَرَغْبَتُهُ فِي فِعْلِ الْخَيْرِ، وَالتَّقَرُّبِ إِلَىٰ رَبِّهِ، وَإِخْلَاصِ الْعَمَلِ لَهُ.
وَبِذَلِكَ يَتَحَقَّقُ الْعَبْدُ بِالنُّصْحِ للهِ وَلِعِبَادِهِ، فَإِنَّ «الدِّينَ النَّصِيحَةُ». وَمَنْ وُفِّقَ لِلْإِحْسَانِ فِي عِبَادَةِ رَبِّهِ، وَالْإِحْسَانِ

فِي مُعَامَلَةِ الْخَلْقِ؛ فَقَدْ تَحَقَّقَ نُصْحُهُ، وَلِذَلِكَ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّىٰ يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

الشرح :

الإحسان إلىٰ الخلق بأي وجه من وجوه الإحسان القولية أو الفعلية أو المالية أو بالجاه أو غير ذلك كل ذلك من الإيمان ، كل ذلك من الإيمان ، لأن هذا الإحسان من خصال الإيمان ، ومن الأعمال الداخلة في الإيمان ، ومن جهة أخرىٰ من دواعيه ، كلما زاد العبد حظاً ونصيباً من هذه الخصال زاد إيمانه بذلك ، وقد مر معنا قول النبي عليه الصلاة والسلام : [الإيمان بضعٌ وسبعون شعبة أعلاها قول لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذىٰ عن الطريق والحياء شعبة من شعب الإيمان] فلو أن شخصاً أحسن إلىٰ عباد الله بإماطة أذىٰ عن طريقهم متقرباً بهذه الإماطة إلىٰ الله يرجو عليها ثواب الله كانت عملاً من أعمال إيمانه يزيد بهذا العبد ويعظم ثوابه عند الله ، بل جاء في صحيح مسلم أن النبي صلىٰ الله عليه وسلم قال : مر رجل بغصن شجرة ذي شوك ، فقال : والله لا أدع هذا في طريق المسلمين فيؤذيهم فنحاه عن طريقهم فشكر الله عمله فأدخله الجنة ، ولا يحقر الإنسان من المعروف شيئاً فأعمال البر وأعمال الإحسان إلىٰ عباد الله سبحانه وتعالىٰ هذه من جهة هي من الإيمان لأنها من أعماله ، ومن دواعي الإيمان لأنها موجبة لزيادته وقوته ، ثم لاحظ فائدةً عظيمة عظيمة جداً نبه عليها رحمه الله وهي الجزاء من جنس العمل وهذه قاعدة شرعية مطردة ، الجزاء من جنس العمل ، فكما أحسن إلىٰ عباد الله وأوصل إليهم من بره ما يقدر عليه أحسن الله إليه أنواعاً من الإحسان ومن أفضلها أن يقوي إيمانه ورغبته في فعل الخير والتقرب إلىٰ ربه وإخلاص العمل له ، والتقرب إلىٰ ربه وإحسان العمل له ، الجزاء من جنس العمل عندما يرحم الإنسان بهيمة أو دابة أو إنساناً يعطف عليه يحسن إليه يعاونه يقضي له حاجة يعين له في حل مشكلة ، يساعده في أمر من الأمور رحمة ورفقاً ومحبةً للخير فالجزاء من جنس العمل يجازيه الله علىٰ ذلك بالإحسان إليه مثل ما أحسن إلىٰ عباد الله فيجازيه الله سبحانه وتعالىٰ بالإحسان إليه ومن ذلكم أن يتفضل الله عليه بقوة الإيمان ، وكم من شخص كان سبب ثباته علىٰ هذا الدين بفضل الله ومنه ما يسر الله سبحانه وتعالىٰ له من إحسان ، وكم إلىٰ الناس أو إلىٰ حتىٰ بهيمة الإنعام المرأة البغي التي تاب الله عليها وغفر لها وتركت ذلك العمل القبيح الشنيع سقت كلباً فغفر الله لها ، فالشاهد أن الإحسان إلىٰ عباد الله وحتىٰ إلىٰ بهيمة الأنعام من أعظم الأسباب التي يجازىٰ من أعظم الأسباب التي يتحقق بها مجازاة العبد زيادة في إيمانه وثباتاً علىٰ دين الله سبحانه وتعالىٰ .

قال رحمه الله تعالىٰ :

وَمِنْهَا: قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١﴾ **إِلَىٰ قَوْلِهِ:** ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝١٠﴾الْآيَةَ [المؤمنون : ١- ١٠]، **فَهَذِهِ الصِّفَاتُ الثَّمَانِ، كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهَا تُثْمِرُ الْإِيمَانَ وَتُنَمِّيهِ، كَمَا أَنَّهَا مِنْ صِفَاتِ الْإِيمَانِ وَدَاخِلَةٌ فِي تَفْسِيرِهِ، كَمَا تَقَدَّمَ.**

فَحُضُورُ الْقَلْبِ فِي الصَّلَاةِ، وكَوْنُ الْمُصَلِّي يُجَاهِدُ نَفْسَهُ عَلَىٰ اسْتِحْضَارِ مَا يَقُولُهُ وَيَفْعَلُهُ؛ مِنَ الْقِرَاءَةِ، وَالذِّكْرِ، وَالدُّعَاءِ فِيهَا، وَمِنَ الْقِيَامِ وَالْقُعُودِ، وَالرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ؛ مِنْ أَسْبَابِ زِيَادَةِ الْإِيمَانِ وَنُمُوِّهِ.

وَتَقَدَّمَ أَنَّ اللهَ سَمَّىٰ الصَّلَاةَ إِيمَانًا بِقَوْلِهِ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ﴾[البقرة: ١٤٣]، وَقَوْلِهِ: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾[العنكبوت: ٤٥]، فَهِيَ أَكْبَرُ نَاهٍ عَنْ كُلِّ فَحْشَاءٍ وَمُنْكَرٍ يُنَافِي الْإِيمَانَ، كَمَا أَنَّهَا تَحْتَوِي عَلَىٰ ذِكْرِ اللهِ الَّذِي يُغَذِّي الْإِيمَانَ وَيُنَمِّيهِ، لِقَوْلِهِ: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾

وَالزَّكَاةُ كَذَلِكَ تُنَمِّي الْإِيمَانَ وتَزِيدُهُ، وَهِيَ -فَرْضُهَا وَنَفْلُهَا- كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ بُرْهَانٌ عَلَىٰ إِيمَانِ صَاحِبِهَا، فَهِيَ دَلِيلُ الْإِيمَانِ، وَتُغَذِّيهِ وَتُنَمِّيهِ.

وَالْإِعْرَاضُ عَنِ اللَّغْوِ - الَّذِي هُوَ كُلُّ كَلَامٍ لَا خَيْرَ فِيهِ، وَكُلُّ فِعْلٍ لَا خَيْرَ فِيهِ، بَلْ يَقُولُونَ الْخَيْرَ وَيَفْعَلُونَهُ، وَيَتْرُكُونَ الشَّرَّ قَوْلًا وَفِعْلًا - لَا شَكَّ أَنَّهُ مِنَ الْإِيمَانِ، وَيَزْدَادُ بِهِ الْإِيمَانُ، وَيُثْمِرُ الْإِيمَانَ.

وَلِهَذَا كَانَ الصَّحَابَةُ } وَمَنْ بَعْدَهُمْ؛ إِذَا وَجَدُوا غَفْلَةً أَوْ تَشَعَّثَ إِيمَانُهُمْ، يَقُولُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: «اجْلِسْ بِنَا نُؤْمِنْ سَاعَةً»، فَيَذْكُرُونَ اللهَ، وَيَذْكُرُونَ نِعَمَهُ الدِّينِيَّةَ وَالدُّنْيَوِيَّةَ، فَيَتَجَدَّدُ بِذَلِكَ إِيمَانُهُمْ.

وَكَذَلِكَ الْعِفَّةُ عَنِ الْفَوَاحِشِ -خُصُوصًا فَاحِشَةَ الزِّنَا- لَا رَيْبَ أَنَّ هَذَا مِنْ أَكْبَرِ عَلَامَاتِ الْإِيمَانِ وَمُنَمِّيَاتِهِ، فَالْمُؤْمِنُ لِخَوْفِهِ مَقَامَهُ بَيْنَ يَدَيْ رَبِّهِ نَهَىٰ النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ؛ إِجَابَةً لِدَاعِي الْإِيمَانِ، وَتَغْذِيَةً لِمَا مَعَهُ مِنَ الْإِيمَانِ.

وَرِعَايَةُ الْأَمَانَاتِ وَالْعُهُودِ وَحِفْظُهَا؛ مِنْ عَلَائِمِ الْإِيمَانِ، وَفِي الْحَدِيثِ: «لَا إِيمَانَ لِمَنْ لَا أَمَانَةَ لَهُ».

وَإِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَعْرِفَ إِيمَانَ الْعَبْدِ وَدِينَهُ؛ فَانْظُرْ حَالَهُ، هَلْ يَرْعَىٰ الْأَمَانَاتِ كُلَّهَا؛ مَالِيَّةً، أَوْ قَوْلِيَّةً، أَوْ أَمَانَاتِ الْحُقُوقِ؟ وَهَلْ يَرْعَىٰ الْحُقُوقَ وَالْعُهُودَ وَالْعُقُودَ الَّتِي بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللهِ، وَالَّتِي بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْعِبَادِ؟ فَإِنْ كَانَ كَذَلِكَ؛ فَهُوَ صَاحِبُ دِينٍ وَإِيمَانٍ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ؛ نَقَصَ مِنْ دِينِهِ وَإِيمَانِهِ بِمِقْدَارِ مَا انْتَقَصَ مِنْ ذَلِكَ.

وَخَتَمَهَا بِالْمُحَافَظَةِ عَلَىٰ الصَّلَوَاتِ -عَلَىٰ حُدُودِهَا، وَحُقُوقِهَا، وَأَوْقَاتِهَا-؛ لِأَنَّ الْمُحَافَظَةَ عَلَىٰ ذَلِكَ بِمَنْزِلَةِ الْمَاءِ الَّذِي يَجْرِي عَلَىٰ بُسْتَانِ الْإِيمَانِ، فَيَسْقِيهِ، وَيُنَمِّيهِ، وَيُؤْتِي أُكُلَهُ كُلَّ حِينٍ.

وَشَجَرَةُ الْإِيمَانِ -كَمَا تَقَدَّمَ- مُحْتَاجَةٌ إِلَىٰ تَعَاهُدِ كُلَّ وَقْتٍ بِالسَّقْيِ، وَهُوَ: الْمُحَافَظَةُ عَلَىٰ أَعْمَالِ الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ مِنَ الطَّاعَاتِ وَالْعِبَادَاتِ، وَإِلَىٰ إِزَالَةِ مَا يَضُرُّهَا مِنَ الصُّخُورِ وَالنَّوَابِتِ الْغَرِيبَةِ الضَّارَّةِ، وَهُوَ: الْعِفَّةُ عَنِ الْمُحَرَّمَاتِ قَوْلًا وَفِعْلًا، فَمَتَىٰ تَمَّتْ هَذِهِ الْأُمُورُ؛ حَيِيَ هَذَا الْبُسْتَانُ، وَزَهَا، وَأَخْرَجَ الثِّمَارَ الْمُتَنَوِّعَةَ.

الشرح :

هذا أيضاً من الأسباب العظيمة والدواعي العظيمة لقوة الإيمان وزيادته أن يحافظ العبد علىٰ الطاعات والعبادات المالية والبدنية القولية والفعلية ، يحافظ عليها محافظة تامة لأنها من الإيمان وبمحافظة العبد عليها يزداد إيمانه ، وأورد رحمه الله تعالىٰ هذه الآيات العظيمة من أوائل سورة المؤمنين والتي صدها جل وعلا في قوله : ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١﴾

أي قد تحقق فلاحهم والفلاح هو حيازة الخير في الدنيا والآخرة ثم ذكر صفات هؤلاء الذين تحقق فلاحهم وهي كما قال رحمه الله صفاتٌ كل واحدة منها تثمر الإيمان وتنميه ، كل واحدةٌ منها تثمر الإيمان وتنميه ، وبدأها الله عز وجل بالخشوع في الصلاة بحضور القلب وكون المصلي يجاهد نفسه علىٰ استحضار معاني الأذكار والأدعية والقراءة التي تكون في الصلاة كذلك محافظته علىٰ الزكاة وبذل المال الفرض منه والنفل ، وقد قال عليه الصلاة والسلام : الصدقة برهان أي علامة علىٰ إيمان الشخص ودليل عليه ، كلما كان شديد العناية بالصدقة فرضها ونفلها كلما كان ذلك دليلاً علىٰ صدق رغبته وحسن توكله علىٰ الله وطلبه ما عند الله سبحانه وتعالىٰ ، كذلك إعراض المرء عن اللغو وهو كل كلام لا خير فيه بصيانة لسانه وحفظ لسانه عن الفحش والبذاء وغير ذلك فهذا من أعظم الأسباب علىٰ الاستقامة علىٰ الإيمان ، لا يستقيم إيمان مرء حتىٰ يستقيم لسانه ، كذلك العفة عن الفواحش : ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ۝٥﴾

العفة عن الفواحش والبعد عنها لا سيما فاحشة الزنا ، كذلك الرعاية للأمانات وحفظها ، فهذه الخصال التي جاءت في هذا السياق العظيم المبارك عناية العبد بها ومحافظته عليها كلها من دواعي الإيمان ومن موجباته ، يقول رحمه الله : (**وَإِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَعْرِفَ إِيمَانَ الْعَبْدِ وَدِينَهُ؛ فَانْظُرْ حَالَهُ، هَلْ يَرْعَىٰ الْأَمَانَاتِ كُلَّهَا؛ مَالِيَّةً، أَوْ قَوْلِيَّةً، أَوْ أَمَانَاتِ الْحُقُوقِ؟ وَهَلْ يَرْعَىٰ الْحُقُوقَ وَالْعُهُودَ وَالْعُقُودَ الَّتِي بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللهِ، وَالَّتِي بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْعِبَادِ؟ فَإِنْ كَانَ كَذَلِكَ؛ فَهُوَ صَاحِبُ دِينٍ وَإِيمَانٍ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ؛ نَقَصَ مِنْ دِينِهِ وَإِيمَانِهِ بِمِقْدَارِ مَا انْتَقَصَ مِنْ ذَلِكَ.**) ثم ختم هذا السياق بالمحافظة علىٰ الصلوات بشروطها وأركانها وواجباتها ، وبين رحمه الله أن الصلاة بمنزلة الماء الجاري علىٰ بستان الإيمان كل يوم يغذي ، تغذي هذه الصلاة شجرة الإيمان ، فرض الصلاة ونفلها ، مثلها كمثل بستان ، مثل الماء الجاري علىٰ بستان الإيمان فيسقيه وينميه ويؤتي أكله كل حين ، ثم بين رحمه الله أن شجرة الإيمان تحتاج إلىٰ تعاهد مثل سائر الشجر ، وانظر عمل الفلاح في بستانه انظر عمل الفلاح في بستانه كيف أنه يتعاهد الشجر أولاً بالسقي ، سقيه بالماء يتعاهده بحسب حاجة الشجر إلىٰ الماء ، ثم يتعاهده مرة أخرىٰ بإزالة النباتات والصخور التي تؤذي هذه الشجرة لأن لو تركت هذه النباتات وتركت الصخور لضعف إنتفاعها بالماء الذي تسقىٰ به لأن هذه الأشياء تزاحمها علىٰ الماء ولاسيما النباتات التي تنبت في حوض الشجرة ، فمن عمل الفلاح أنه يزيل هذه النباتات حتىٰ لاتؤذي الشجرة ولا تزاحمها في الماء ، يقول رحمه الله شجرة الإيمان محتاجة إلىٰ تعاهد كل وقت بالسقي ، والمحافظة علىٰ أعمال اليوم والليلة من الطاعات والعبادات وإلىٰ إزالة ما يضرها من الصخور والنوابت الغريبة الضارة ، ما هو هذا ؟ قال : العفة عن المحرمات ، قولاً وفعلاً ،فإذن الصلوات وأعمال البر هي بمثابة ما يسقي هذه الشجرة ويغذيها وتجنب المحرمات هو بمثابة إزالة النوابت الغريبة التي تزاحم هذه الشجرة وتؤذيها فمتىٰ تمت هذه الأمور حيّ هذا البستان وزهىٰ وأخرج الثمار المتنوعة .

سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت استغفرك وأتوب إليك .

اللهم صلي وسلم علىٰ عبدك ورسولك نبينا محمد وعلىٰ آله وصحبه .